مناحي الحياة الاجتماعية عند البيزنطيين
(الأعراف – العادات – التقاليد)

إعداد
د. خميس أحمد أرحومة حميد
أستاذ مشارك – قسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة طبرق- ليبيا
kbootruba@yahoo.com

الملخص:

من أجل الوقوف على العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع البيزنطي الذي عاشت دولته أكثر من ألف سنة وتوسعت حدودها شرقا وغربا واختلط أفرادها بطبيعة الحال بالكثير من المجتمعات البشرية التي عاصرتهم مما أثر في سماتهم الاجتماعية والثقافية من حيث العادات والممارسات الاجتماعية في مختلف مناحيها أفراح كانت أم أتراح، أمتد ذلك التأثير إلى تشكيل هويتهم فأصبح لهم ملابس خاصة تناسب كل منها مناسبة خاصة وطبقة بعينها، كما كانت لهم أطعمة يتناولونها في أوقاتهم اليومية العادية وأخرى خلال ولائمهم التي يقيمونها، وهي تتباين بين أثرياؤهم وفقراؤهم ناهيك عن اختلاف مساكنهم وأثاثهم. وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى عدة مباحث تناول كل منها جانب من جوانب الحياة الاجتماعية فمنها ما سيختص كالمبحث الأول بالبناء والأثاث ثم سيتلوه المبحث الثاني الذي يحمل عنوان الأسرة وسيشمل الزواج وتسمية الأطفال وتربيتهم وتعليمهم واهم العابهم، وعادات الوفاة، ثم يأتي المبحث الثالث الذي سيدور حول أوقات الطعام وأنواعه، في حين ان المبحث الرابع سيكون الملابس، وبعدها المبحث الخامس الاحتفالات والمهرجانات، ثم خاتمة الدراسة يليها أهم المصادر والمراجع.

وقد اعتمد الباحث في إعداد هذه الدراسة على المنهج التاريخي السري التحليلي.

Abstract:

To explore the customs and traditions prevalent in the Byzantine society, which lasted for over a thousand years and expanded its borders eastward and westward, mingling with various human communities, naturally influencing their social and cultural characteristics in terms of customs and social practices in various aspects of their lives, be it festivities or daily routines. This influence extended to shaping their identity, resulting in distinctive clothing suited for specific occasions and social classes.

They also had specific foods for their daily meals and special dishes for their feasts, varying between the rich and the poor, not to mention the diversity in their dwellings and furniture. This study is divided into several sections, each addressing a different aspect of social life. The first section focuses on architecture and furniture, followed by the second section, which explores family life, including marriage, naming of children, upbringing, education, and important games. The customs related to death are covered in the third section, while the fourth section examines meal times and types of food. The fifth section delves into clothing, followed by the sixth section, which discusses celebrations and festivals. The study concludes with the most important sources and references. The researcher adopted a historical and analytical approach in conducting this study.

المقدمة

مما هو معروف أن لكل مجتمع عاداته وتقاليده المتمثلة في أنماط حياته وتفاعل أفراده مع ما يمر بهم من أحداث يومية ومناسبات اجتماعية وهي أما أن تكون محزنة كالوفاة أو مفرحة كالزواج والإنجاب والأعياد مثلا.

تلك العادات والأعراف اتسم بها المجتمع البيزنطي فاتفق مع بعضها واختلف مع أخرى وتفرد ببعضها عن سائر المجتمعات الأخرى، إذ كان للبيزنطيين سمات ثقافية خاصة بهم، ظهرت بشكل جلي عبر تراثها في شتى المناحي، وهي ناجمة عن اندماجها في الثقافات السابقة والمعاصرة لها كالمصرية والأرمينية واليونانية وغيرها، غير أن المؤرخين إلا القليل منهم لم يعيروا هذا الجانب اهتماما كبيرا مما تسبب في ندرة المصادر والمراجع التي تتناول هكذا مواضيع.

ومن أجل الوقوف على هذه الأعراف والعادات جاء اختيار هذا الموضوع لما له من أهمية في بيان ما كانت عليه حياة الناس في ذلك الوقت، والتي نهدف من خلال الاطلاع عليها إلى معرفة مدى ما تعكسه تلك التقاليد من أرث على واقع المجتمع في الزمن الحديث، معتمدين في سبيل تحقيق ذلك على بعض المصادر والمراجع المتنوعة منها القانونية كتشريعات جستنيان (527-567م) ومنها ما يختص بالسيرة كألكسياد لآنا كومنيين ومنها اجتماعية كمجتمع الفلاحين في الإمبراطورية المتأخرة (دراسة اجتماعية وديموغرافية) ... وغيرها.

وستشمل هذه الدراسة العادات والأعراف التي كان عليها المجتمع البيزنطي من خلال عدة مباحث تدور حول بناء القصور، والمنازل، بالإضافة إلى المهرجانات، والاحتفالات الدينية، والمناسبات الخاصة، والطعام، واللباس، والزواج، وتسمية الأطفال، وتربيتهم، ودخولهم للمدارس، والجامعة عند بلوغهم....الخ.

متبعين في إعداد هذه الدراسة على المنهج التاريخي السردي الوصفي المقارن، لمناسبته موضوع البحث. آملين من الله التوفيق والسداد.

البناء والأثاث

كان للبيزنطيين منازلهم الخاصة التي تشيد حسب الإمكانيات المادية لكل عائلة، وما تمليه الثقافة الاجتماعية على أفرادها، فمنازل المدينة تختلف في تصميمها عن تلك التي تكون في الريف، ولا يعني هذا تشابه وتطابق المنازل في المنطقة الواحدة وإنما تتباين فيما بينها داخل البيئة الواحدة وفقا لما تملكه العائلة من أموال. فمن العادات المعروفة لدى البيزنطيين الأكثر ثراءً في بناء مساكنهم جعلها طابقين وتتخذ هذه المنازل تصميمين أحدهما تجاهل وضع فتحات من الخارج واكتفى بالأطلال على فناء داخلي في العادة به حوض ماء أو أي منظر زينة جميل من وحي الخيال، وغالبا ما يكون مسقوفا

[1]، اما التصميم الثاني فكان ايضا على طابقين ويطل على فناء كبير مغلق على من هو بالخارج، بأبواب على المدخل وهي أبواب خاصة مصنوعة من الحديد المرصع بمسامير قوية، ، وتطل على الفناء إسطبلات المالك وحظائر الماشية وبيوت الدواجن وغرف التخزين الأساسية وهذا الأمر يوضح مدى الاتساع الكبير الذي كان يمثله الفناء بشكل عام فهو يحتوي على بئر ماء يعتمدون عليه في الحصول على شرابهم وتغطية باقي احتياجاتهم، ومساحة كافية لترويض خيولهم، كما كان يحفر على الجدار المواجه للشارع أسماء أصحاب المنازل.[2]

ويبدو أن الاحتياج إلى مساحات اكبر أدى إلى ظهور نمط جديد من البيوت خلال القرن الخامس وعلى وجه الخصوص في القسطنطينية حيث اتسمت بالطول، وعلى الرغم من أن الأجزاء السفلية من الجدران المقابلة للشارع ظلت فارغة فقد أصبح من المعتاد فتح نوافذ في الطوابق العليا اختلفت في أشكالها فمنها المستطيلة أو المستديرة من الأعلى، وهي على صف واحد ويتم تركيب ألواح زجاجية صغيرة لها ذات أشكال مثمنة أو مستطيلة داخل إطار من الجص[3] وهي مسطحة ومقطعة يبلغ طولها ما بين 8 – 12 بوصة، وزودت هذه النوافذ بشرفات وهي عادة انتشرت في البناء بشكل واسع لدرجة أن الإمبراطور زينون Zeno (474 – 491م) اصدر قانون يقيد إنشائها إذ اشترط أن يكون بين الشرفة والجدار الآخر مسافة لا تقل عن عشرة أقدام وان يكون ارتفاعها عن سطح الأرض ايضا لا يقل عن خمسة عشر قدما.[4] وعلى الرغم من حرص البيزنطيين على أن تكون النوافذ والشرفات تطل على البحر أو المناظر الطبيعية الخلابة، إلا أنه لم يكن يسمح لهم بفتح النوافذ المطلة على الجيران إذا كانت المسافة بينهم أقل من اثني عشر قدما، وأذن لهم بدل ذلك بفتح نوافذ من حديد لأجل التهوية [5]

كان المنزل يحتوي على غرفة جلوس رئيسية يتم استقبال الضيوف فيها وقد استخدمها الرجال أكثر من النساء بالإضافة إلى غرف النوم، ومطبخ تميز بوجود موقد منخفض ملحق به أنابيب مربعة تقام عليها مدخنة لأبعاد دخان حرائق الحطب، وتتوفر في مثل هذه البيوت التدفئة، كما أن الحمام يقام في الحديقة الملحقة بالمنزل[6]، وفي نفس الوقت كان من الممكن أن يقام

الحمام بالطابق الثاني ولكن بشرط مراعاة القانون المتعلق بذلك البناء من حيث ضرورة أن يقام على أقواس، ولا يرفعه عن الارتفاع العادي.[7]

اما الفقراء فكانت مساكنهم وان اشتهرت بشرفاتها[8] إلا أنها على النقيض من بيوت الأغنياء، فأصحابها معدمون ولا يمتلكون المال الذي يساعدهم على البناء، ومن ثم فإن الحالة العامة للمنزل يرثى لها فهي صغيرة الحجم مسقوفة بالأسل[9] وأرضياتها ترابية غير متساوية ، وهناك نوع آخر من البيوت خاص بالمزارعين وهي على شكلين الأقل حظ منهم كان له بيت مكون من غرفتين، أما الأكثر حظا أي بمعنى أنهم أكثر نجاحا في عملهم فهؤلاء كانت لهم منازل مكونة من طابقين، الطابق الأول خاص ببيوت الدجاج والإسطبلات ، وغرف التخزين، أما العلوي الذي يمكن الوصول إليه عن طريق درج خارجي يحتوي على غرف العائلة.[10]

اما عن الأثاث فهو كالبناء يتنوع بحسب ثروة الناس، فالأغنياء يستخدمون الأسرة ذات الأربعة أرجل والأغطية والبطانيات والالحفة والأغطية المصنوعة من الأقمشة الثمينة و المطرزة بشكل جميل، كما كانت الستائر جزء أساسي من أثاث المنزل مثل الوسائد والسجاد، أما الفقراء فكان عليهم أن يكتفوا بالخرق والأكياس.[11]

الأسرة

سنتناول في هذا المبحث ابرز العادات والتقاليد والطقوس التي تمارس عند البدء في تكوين الأسرة من زواج وإنجاب وتسمية الأطفال وما يتعلق بشأن تربيتهم وتعليمهم.

أ – الزواج

لم يكن يحدث الزواج من أجل مشاعر الحب والعشق، بل كان يبنى في العادة على أساس عقلي ولا ينظر إلى العامل العاطفي إلا نادرا ذلك على وجه الخصوص بين أفراد العوائل الثرية حيث يتمثل الشرط الأساسي لدى هؤلاء في المواصفات التي يتمتع بها الطرفان المقترنان وما مدى استفادتهم ومن خلفهم من هذا الاقتران، من الناحية الاقتصادية أو السياسية، ولا يعني هذا نفي بعض الحالات الاستثنائية والنادرة التي كان للحب والرومانسية مجال فيها لتأسيس الأسرة.[12]

على أية حال، كان المجتمع البيزنطي مجتمع أبوي أي ذكوري ويمثل فيه الزوج رأس العائلة[13] ورئيسها ويمنح الكثير من الحقوق التي تجعله كذلك،[14] إذ من حقه أن يختار لابنه أو ابنته من يشاركهم في الحياة، بمعنى آخر كان يغلب على عملية الزواج في المجتمع البيزنطي طابع الزواج المدبر ، مع أن الحب كان مأمولا إلا أنه كان يفضل أن يأتي بعد حفل الزفاف، لا قبله، حتى أن بعض من العوائل كانت تحرص على عدم لقاء العروسين ببعضهما قبل الاحتفال بزفافهما.[15]

وهنا يتبادر إلى الذهن التساؤل حول العادة التي يتم بها اختيار العروس من جهة؟ ومدى قبول العروسان لبعضهما من جهة أخرى؟

وللإجابة على هذا التساؤل يمكن القول أن المجتمع البيزنطي كان له شبه ناموس عرفي في اختيار العروس حيث تختص نساء مسنات كن يمتهنن عملية ترشيح الزوجات، عن

طريق ذكر إحدى الفتيات أو التعريف بها للمقبل على الزواج، ويجب ملاحظة أنه لم يكن هن الوحيدات المختصات بهذا الأمر، بل كان هناك غيرهن ممن يساهم ويساعد في أتمام هذه العملية كالأصدقاء مثلا والأقارب الذين يشعرون بالسعادة والسرور حين يعثرون لرجلهم على عروس، إلا أن هذا الزواج بهذه الطريقة أو بغيرها لا يمكن له أن يتم إلا بموافقة الأب ورضاه، فالأب في المجتمع البيزنطي كان المالك لزمام الأمور في معظم حالات المصاهرة في عائلته ولا يمكن تجاوزه بأي حال من الأحوال فهو يقوم بالتدبير مع من ذكرنا من النسوة المتخصصات في هذه الوظيفة، أو مع الأصدقاء في اختيار العروس وله الحق العرفي والقانوني في فرضها على ابنه الذي لا يسعه إلا الموافقة وكذلك كان الحال بالنسبة للفتاة عليها القبول بالزوج الذي يختاره لها والدها،[16] وما يعزز هذا القول أن الأب أو الأم كانا يقومان بالخطبة لابنهما وهو في سن الطفولة، طفلة يختارانها له لتصبح عند بلوغ سن الزواج عروسا له كما حدث على سبيل المثال مع آنا كومنين Anna Komnen (1083- 1153م) التي تمت خطبتها في سن الطفولة إلى قسطنطين دوكاس Constantine Doukas (1074 – 1095م) بن ميخائيل السابع Michael VII (1071 – 1078م) وإن لم تتزوجه لوفاته المبكرة[17]، وكذلك ما صنعته الإمبراطورة ثيودورا Theodora (815 – بعد 867م) عندما كانت وصية على ابنها(842 -855م) ميخائيل الثالث Michael III(842-867م)حيث أجبرته سنة 855م على الزواج من أيدوكيا ديكابوليتا Eudocia Decapoita (836- 867م)بدلا من الفتاة التي أحبها وأراد الزواج منها وهي إيدوكيا انجرينا Ingerina Eudocia(840- 882م)[18]

وهكذا كانت تجري الأحداث وبعد أن يتم الاتفاق بين الطرفين على الشروط وتتم الخطبة وتبدأ الاستعدادات ليوم الزفاف كان يمنع على المرأة الخروج من منزلها والذهاب إلى مأتم أو زيارة قبر إذ يعد ذلك من باب التشاؤم نذير سوء، ومن عادات الزفاف المتعارف عليها كان تبادل الخواتم بين العروسين ولبس التاج، وإقامة الولائم ، حيث كانت تحضر المرأة العروس بعد استحمامها وتزيينها ولبسها فستان الزفاف إلى غرفة مزينة بزخارف على الطريقة الرومانية ويجلس العريس بجانبها ويرتدون العباءة أو غيرها من الملابس الرومانية، ثم يكشف عنها النقاب ليراها لأول مرة وبعد ذلك يتشاركان كأس من النبيذ وسط حشد من المدعوين، اللذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء كما جرت العادة، وبين حاملى المشاعل والأناشيد، والغناء، يتوجه العروسان إلى الكنيسة، قبل أن يتم زفافهما إلى منزل الزوجية ،فإذا كان المتزوجان من الأغنياء أو الساسة ذوي المناصب تذكر في الأغاني الألقاب الخاصة بهما، وذلك للتمييز بين العرسان فكلما كانا ذو مركز كبير زادت الفخامة عاليا.[19]

وعند مغادرتهم الكنيسة متجهين إلى غرفة الزوجية تستقبلهم الآلات الوترية والصنوج والهتافات التي تدعو لهم وتتمنى لهم إنجاب الأطفال ومباركة الرب.[20]

ب -تسمية الأطفال وتربيتهم

بما أن المجتمع البيزنطي مجتمع ذكوري فقد فضل أفراده المولود الذكر على الأنثى[21] شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المجتمعات القديمة التي كان للذكر شأن غير الأنثى

ولربما يرجع ذلك إلى طبيعة الحياة آنذاك، التي تستدعي أن يكون للأسرة أفراد أقوياء يلبون لها حاجاتها ويدافعون عنها بسواعدهم القوية، ولا ينفي هذا بعض الحالات الفردية التي نجد فيها الاسرة البيزنطية تبتهج بميلاد الانثى ولعل ميلاد آنا كومنين يبين هذا[22] وان كان المتتبع لحياتها سيجد أنه عندما رزقت باخ ذكر هو يوحنا الثاني John II (1118- 1143م) اقصاها عن عرش الإمبراطورية[23] على الرغم من أنه كان أصغر منها إلا أن ثقافة المجتمع الذكوري دفعت بوالدها إلى اتخاذه وليا لعهده بدلا عنها.

على أية حال نستنبط من وصف قصة أنَا لمولدها كما سمعتها هي بعض العادات التي كان عليها البيزنطيين عند استقبال المولود الجديد وخاصة الأسرة الإمبراطورية.

كانت هناك حجرة مخصصة للولادة داخل القصر الإمبراطوري تسمى بالحجرة البورفيروجينيس Porphrogenius تدخل إليها الأم الحامل عند بدء شعورها بآلام المخاض، كما فعلت أمها حيث وضع على أبواب الغرفة ونوافذها الستائر الأرجوانية ومنع من أن يدخل إليها غير بضع فتيات من أقارب الإمبراطور وزوجته، أما الوصيفات كن ينتظرن وهن في حالة من القلق، والاضطراب، والخوف، ما ستسفر عنه تلك الصرخات التي تصدرها الإمبراطورة من داخل الحجرة ، وبينما هن على تلك الحالة إذ خرجت عليهن إمرأة فارعة الطول قوية البنية عليها سمة القابلات معلنة لهن عن إنجاب أول ابنة للإمبراطور، فعلت جوانب القصر صيحات الفرح وهتافات السرور، والإنعام بالهدايا والخلع التشريفية لكبار رجال الدولة، وتم الهتاف ايضا باسم المولودة التي هي أنَا وكانت على اسم جدتها.[24] فمن العادات التي كانت تعرف قي المجتمع البيزنطي عند ولادة الطفل يتم بعد تنظيفه بتغطيسه في الماء، لفه بملابس يرتديها مدة تزيد على الأربعين يوما وهي مبطنة من الصوف ، ثم يوضع في مهد يشرف عليه خادم[25] ثم يسمونه، وقد اشتهرت بينهم التسمية على الأجداد من ناحية الأب أو الأم سواء، أو الأخوال، كذلك كان يطلق على المولود الجديد اسماء تظهر التمسك بالدين كاسم ثيودورا Theodoraالذي يعني عطية الله، وثيوكارس المشتق من ثيوتوكس Theotokos الذي يعني أم الله وباناجيوتس Panagiottes وهي من صفات العذراء وتعني الأكثر قداسة، أو أسماء تعبر عن الرغبة في التوقف عن المزيد من الأطفال أو توقف الموت لمن أخذ المزيد مثل Stamatas، أو أسماء للفتيات مشتقة من أسماء الأزهار كاسم روز Rose (وهي زهرة الجوري) أو مارغريتا Margarita (وهي زهرة الأقحوان).[26]

ومن الملاحظ أيضا من جانب أخر أن الأسرة في المجتمع البيزنطي كان يسمح فيها للأعمام والعمات والأصهار البالغون بالعيش في منزل واحد، إلى حين تمكنهم من تكوين أسر خاصة بهم، وتفسير ذلك يبدو أنه بسبب أن معظم هؤلاء كانوا في الغالب أرامل أو أيتام.[27]

ج – التعليم والألعاب

على الرغم من أن الدين كان هو المحرك الرئيسي في الحياة البيزنطية، وكانت الرهبنة في أوج انتشارها وخاصة خلال القرن العاشر الميلادي، بالإضافة إلى رفض الكنيسة التعليم الدنيوي أو ما يعرف بالعلماني، إلا أن ذلك لم يمنع العلوم الدنيوية من الاستمرار والحفاظ على وجودها إلى جانب علوم العقيدة المسيحية، فكان الرهبان يقومون بتعليم الأطفال في مدارس

الكنيسة، الكتابة بخط جيد، وتحفيظ الكتاب المقدس، وقواعد اللغة اليونانية من قراءة،ونحو، وبلاغة، وقد منح لهم الإذن لضرب التلاميذ المهملين وغير الراغبين في التعلم،كما منعت رواية قصص الرعب للأطفال حتى لا يتم إخافتهم، وعندما يبلغ التلاميذ الرابعة عشر يتعلمون الفلسفة والعلوم والفنون الأربعة الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك، ثم يتم تعلم بقية العلوم في الجامعات مثل الطب والكيمياء وغيرها.[28]

وقد كانت هناك عادات هزلية يتعرض لها الطالب عند دخوله إلى الجامعة منها، أن الطلبة السابقين له كانوا يصحبونه من الساحة إلى الحمام وعند اقترابهم يصرخون بقوة ويقفزون ويأمرونه بالتوقف لأن الحمام لا يريد استقباله وكانوا أثناء ذلك يضربون على مصراعي الباب ثم يسمحون له بالدخول وعند خروجه يستقبلونه كواحد منهم، وكانوا عند اقتيادهم للطلاب الجدد يقتادون معهم من استحقوا ارتداء العباءة -عباءة الصوفية- حيث يُقدّمون عند بلوغهم عمر معين للمدرسين فيهرع البعض لمنع ذلك، فيما يقوم آخرون بدفعهم إلى الوراء، ويهتف الذين يريدون إيقافهم، توقف! توقف! لا تدخل الحمام، ويُعد من صمد منهم قد بجل الأستاذ الذي قادهم، وبعد نقاش طويل له صيغ محددة سابقا، يتم اقتياد الصامد منهم للاستحمام بالماء الدافئ ، وبعد أن يلبس ثيابه يحصل على رخصة ارتداء العباءة مباشرة ويخرج من الحمام يتبعه موكب مشرف رفيع المستوى ولكن ذلك يتطلب أن يدفع مبالغ كبيرة لهؤلاء البهلوانيين الذين يتزعمون المؤسسة.[29]

كان للأطفال ألعابهم وهواياتهم سواء كانوا ذكورا أم إناث، فقد كان الأولاد الذكور يلعبون على الطين أو ما يشكل منه على هيئة الحمير والخيول والبيوت الترابية والحجرية، أما الفتيات فكان لهن دمى مصنوعة من الشمع أو الطين أو الجبس.[30]

د- الوفاة

من ضمن العادات الاجتماعية في الإمبراطورية البيزنطية في حالة موت أحدهم أن تبكي عليه النساء، فيقمن بنزع شعورهن، ولطم خدودهن، وتمزيق أرديتهن، وليس بالضرورة على من تفعل تلك الأعمال أن تكون من النساء التي تربطهن صلة قرابة بالمتوفى ، فقد عرف المجتمع البيزنطي فئة من النساء يمتهن وظيفة المنتحبة، أو الندابة، حيث كان عليهن فعل ذلك مقابل ما يمنح لهن، ثم بعد الانتهاء من ذلك يقوم أهل الميت بتجهيز ميتهم من خلال تغسيل الجثمان ورشه بالزيوت والطيب.[31]

وحين يذهبوا به إلى الدفن يمكثون عند قبره مدة قبل أن ينصرفوا، ثم يعاد البكاء عليه مرة ثانية في اليوم السابع لدفنه لاعتقادهم أن هذا من باب الوفاء، كما أنه تقام الصلوات من أجل موتى كل عائلة عشية صلاة كل الأرواح، ومن ثم يتبعها صبيحة اليوم الثاني خروج نساء القرية، وبناتها، في موكب كبير يحملن سلالهن، وأطباقهن، وزجاجاتهن من الكنيسة إلى الجبانة، حيث يتناولن هناك بعضا مما معهن، ويتركن البعض الآخر على القبور.[32]

أما الجنازة الإمبراطورية وبما أنه الوحيد الذي يسمح بدفنه داخل المدينة القسطنطينية ويحرم على غيره،[33] إذا ما مات يخرج الجثمان ويضع في نعش ذهبي يعرف (بنعش الحزن)

في قاعة داخل القصر، ويكون الجسد متوجا، ثم يدخل عليه رجال الدين ورجال النقابات واعضاء مجلس الشيوخ وينشدون عنده الطقوس، وبعد الانتهاء من ذلك يقول رئيس التشريعات ،أخرج أيها الإمبراطور... يستدعيك إمبراطور الأباطرة ورب الأرباب ثلاث مرات، وعلى الفور يتقدم رجال الإمبراطور ويحملون الجسد إلى مكان الدفن وهناك ينادي رئيس التشريفات ثلاث مرات ايضا ولكن هذه المرة بصيغة أدخل أيها الإمبراطور ...، ثم يزال التاج عنه ويستبدل بشريط من الأرجوان العادي.[34]

أوقات الطعام وأنواعه

ينقسم وقت تناول الطعام في المجتمع البيزنطي كما هو الحال في الوقت الراهن، إلى وجبات يومية أو ولائم تقام بدعوة أحد علية القوم بمناسبة عامة أو خاصة، حيث تقدم فيها أنواع الأطعمة والمشروبات المختلفة.

أ – الوجبات اليومية

تشابه المجتمع البيزنطي مع ما نحن عليه اليوم فقد كانت هناك ثلاثة وجبات رئيسة في اليوم وهي الإفطار في الصباح ووجبة تقع في منتصف النهار وأخرى في الليل وهي العشاء. وتشتمل الوجبة في العادة على خرشوف ، وصلصة بيضاء، وأقدام الخنازير المشوية، والنبيذ بالإضافة إلى البيض المسلوق الذي يتم تقديمه في بيضة مطلية باللون الأزرق.[35]

وتتميز الأسر الميسورة بتقديم ثلاثة أطباق بشكل عام خلال الوجبتين الأخيرتين حيث يتم تقديم المقبلات أولا ثم يتم إلحاقها بالوجبة الرئيسة التي تحتوي في بعض الأحيان على طبق سمك مع صلصة شائعة في ذلك الوقت تسمى جاكوس، أو يقدم بدل السمك قطع من اللحم المشوي، ثم بعد ذلك يأتي دور الحلو وهو الطبق الثالث والأخير، وتختلف أصناف الطعام وتتنوع فمنها لحوم الطرائد وأفضلها غزلان الأناضول، وكانت هناك الحمير البرية، ولحوم البقر، والجاموس، والماعز، والضأن، ويفضل لحوم الصغيرة في السن منها على الأكبر سنا ويميز بين الذكر والأنثى ، أضف إليها اللحوم المجففة التي أصبحت من الأطعمة الشهية، والقواقع والمحار وصلصة السمك وهو بهار مصنوع من الأسماك المغلفة بالملح والمخمرة لمدة زمنية متفاوتة ما بين أسابيع إلى سنتين، والدواجن، والطيور المسلوقة أو المشوية أو المحمصة، ولحم الخنزير الذي يعتبر من أشهر الأطباق المفضلة، ، والحساء الشائع على الرغم مما يتطلبه تحضير الكثير منه لوقت طويل، وكذلك اليخنات (وهي تتألف من الخضار واللحوم مغلية وتقدم مع المرقة) و أيضا السلطات بمختلف أنواعها ، والزيتون، الذي كان أساسيا على المائدة ويقدم بأشكال مختلفة منه المعالج بالملح ومنه المحفوظ في الخل وزيتون أخضر في خل العسل والبازلاء، والجبن وهو محبوب جدا، والفواكه سواء كانت طازجة وهي تعد بمثابة رفاهية يومية للأثرياء أو كانت مطهية. وقد كان التفاح والبطيخ والتين والكمثرى التي يحتفظ بها في سلة مربوطة بحبل داخل بئر ومن ثم يتم سحبها حين الرغبة في أكلها، والتمر والزبيب والفستق من العناصر الثابتة في النظام الغذائي، أما عن تقديم الوجبة فإنه كان على الناس أن يغيروا أحذيتهم الخارجية عند الدخول إلى غرفة الطعام حيث يراعى أن يغطى الطعام بقطعة

من القماش نظيفة ومطرزة بشكل جميل، ويتوقف تقديم الأطباق حسب التفضيل والأذواق لمن هم يتناولون الطعام، وفي الحقيقة أن لربة البيت الحرية في اختيار وجبتها مما هو متاح لها. ويجب على الجميع الجلوس على الكراسي أثناء تناولهم الطعام، وهم على الرغم من وجود الملاعق والسكاكين والشوك أيضا يفضلون الأكل بأيديهم .[36]

لم يكن البيزنطيين في البداية يفضلون الحليب ولا الزبدة، ولكنهم كانوا يفضلون الجبن بشكل كبير، وربما كان ذلك من الأسباب التي أدت إلى إعادة النظر في تناولهم للحليب فأصبحوا يشربونه في الصباح طازجا بعد حلبه مباشرة ولا يأكلون معه شيء ولا بعده وإنما يقومون بالمشي بهدوء حتى يتم هضمه.[37]

ونشير إلى وجود أسواق كبيرة بها متاجر اعتادوا فيها بيع النبيذ والخبز والأسماك والمحار، كما كانت هناك أطعمة تقدم في الشارع فوضع لهذا الغرض الكثير من الطاولات الحجرية حيث يأكل كل من الحكام وعامة الناس في الأماكن العامة، وقد ذكر أن الطعام الساخن الذي استمتع الإمبراطور مانويل الأول كثيرا بتناوله ظل سمة خاصة للقسطنطينية استمرت بعده ما يقارب أربعة قرون.[38]

ب – الوليمة

وجه الخلاف بين الوجبة الاعتيادية والوليمة هو أن الأخيرة يدعا لها جمع من الناس ولعلها مقرونة بمناسبات كالأعراس أو الختان مثلا.

وكانت الوليمة أو المأدبة عند البيزنطيين تبدأ بمختلف الأطعمة ثم بعد ذلك يتم تقديم الفاكهة الطازجة، وفي حالة كثرة الحضور وكان صاحب الوليمة ثريا أو صاحب سلطان كالإمبراطور مثلا فإن تلك الفاكهة تحمل في محفات وعربات حيث تكسى بأجمل الأثواب الملونة ويصف لنا ليودبراند أوف كريمونا كيف كانت الوليمة التي دعاه إليها الإمبراطور قسطنطين السابع في قصره بقوله" أمر الإمبراطور أن يتم دعوتنا في قصره الإمبراطوري، وأعد لنا مأدبة إذا، حيث قدم لنا كل الأطعمة على أواني من الذهب الخالص، وبعد الانتهاء من الطعام،تصل الفاكهة بعد قطفها رأسا من على الأشجار، وتوضع ايضا في أواني ذهبية، وبسبب حجمها وكميتها الكبيرة يصبح من الصعب على الخدم أن يحملونها،فيستعان في ذلك بالمحفات والعربات التي تغطى بأجمل الأثواب الملونة، ويوضع اثنان منها على المائدة بالنظام التالي: بحيث يكون هناك ثوب طويل معلق بالسقف وينزل من أعلى ومطعم بالجلود المذهبة، ومزود بحلقات من معدن الذهب، ويتم ربط هذه الحلقات بمقابض لتسهيل مسك الأشياء منها، وخاصة الأوعية الكبيرة، ويقف أربع أو خمسة رجال بالأسفل ليخدموا عليها، بحيث تتحرك كما الأرجوحة ذهابا وإيابا أمام المائدة."[39]

الملابس

اعتنى البيزنطيون بالملابس، التي تباينت في شكلها وتصميمها بين النبلاء والأغنياء ، وبين العامة والفقراء ، فقد ارتدى العامة في البداية حوالي القرن الرابع الميلادي وعلى وجه الخصوص من الفلاحين سترات طويلة كانت في بعض الأحيان بلا أكمام، وهي دائما مشدودة عند الخصر، أما السراويل فكانت تصل إلى كاحليهم، وغالبا ما يربطون عباءة حول أكتافهم،

ولكنهم لا يرتدون قبعات إلا نادرا، ويسيرون في معظم الأحيان حفاة القدمين ، وأحيانا قليلة يرتدون أحذية بدون كعب.[40] اما خلال القرن السادس الميلادي ارتدوا ما يعرف بالتوجا Toga وهو معطفا فضفاضا طويلا، وإلى جانبه كان هناك نوع آخر يعرف بالبلانتي Planate وهو عبارة عن غطاء واسع مستدير به فتحة في وسطه يسمح بمرور الرأس، بينما يتم رفع الأطراف على الذراعين، وهو زي شعبي يرتديه عامة أفراد المجتمع.[41]

وبعد أن تم الاتصال بالجرمان دخلت بعض التأثيرات على الملابس ففي القرن السابع أصبحت الملابس أكثر ضيقا تكاد تلتصق بالجسد وعلى وجه الخصوص الغطاء الذي كان يعرف بالتونيك Tunique وهو الأكثر شيوعا بين الرجال في الأوساط الشعبية، وهو رداء روماني طويل ذو أكمام يلبسه الرجال والنساء على حد سواء، وكانت هناك ايضا سراويل ملتصقة هي الأخرى بالجسم تغطي الركبة وأحيانا تغطي الساق باكمله، واقلع الناس عن ارتداء الصنادل القديمة وبدأوا في ارتداء الأحذية الشرقية، و الأحذية ذات الرقبة القصيرة، اما النبلاء فقد ارتدوا أحذية مفتوحة من الأمام وبدون كعب تسمى كامبايا والفرسان كانوا يرتدون الأحذية ذات الرقبة الطويلة ثم بعد ذلك خلال القرن التاسع الميلادي ارتدوا أحذية مدببة الأطراف،[42] كما كانوا يرتدون جوارب حريرية متعددة الألوان، بخلاف لباس الإمبراطور الذي يرتدي الحذاء الأرجواني الطويل.[43]

وفيما يخص غطاء الرأس الذي جاء بتأثير من الشرق فقد أصبح سمة للنبلاء وشدد في شأن ارتدائه وكانت ألوانه حمراء وبيضاء مزين بالقيطان، وتزين أغطية الرأس لكبار الشخصيات بالآلي والأحجار الكريمة، وتطرز، ومن هذه الأغطية التوفا Toupha وهو عبارة عن تاج يعلوه ريش يتدلى حول الرأس.[44]

وكان البيزنطيون الأول وجريا على عادة الرومان اعتادوا حلق ذقونهم وتقصير شعورهم ، إلا أن ذلك تغير أبان فترة الإمبراطور جستنيان حيث بدأ أفراد الطبقة الارستقراطية بإعفاء ذقونهم وشواربهم، وأطالوا شعورهم من الخلف، وقاموا بقصها على الجبهة، وكان قسطنطين الرابع Constantine IV (668 – 685م) أول إمبراطور يعتق لحيته.[45]

أما فيما يخص ملابس النساء فإنها بشكل عام كانت عبارة عن رداء طويل غالبا ما تكون له أكمام مطرزة يوضع فوقه خمار ثم بعد ذلك أصبحت اقل اتساعا واقل توضيحا لتفاصيل الجسم، وكانت الملابس الرسمية للإمبراطورات والأميرات عبارة عن سيتنخاريون تونيك Sticharion Tunique له حافة سميكة، ومعطف في أشكال مختلفة فتارة يكون قطعة من نسيج الحرير مربعة أو مستطيلة وتارة أخرى قطعة مستديرة، كما استخدمن الكتان وقد كانت غالب الملابس التي ترتديها الأنيقات منه وكن يفضلن الأقمشة الرقيقة والمنسوجات الخفيفة،ويلبسن عليها العقود من المعمولة من الجواهر والأحجار الكريمة كما وضعن في أصابعهن الخواتم المصنوعة من الذهب والتي كانت على شكل أوراق شجر أو حيوانات أو على هيئة نصف القمر تزينها نقوش دقيقة وجميلة، واما الأقراط كانت من الجواهر مطعمة بخيوط من الذهب وتتخذ أشكالا مختلفة منها الكمثرية على سبيل المثال، وهن يصففن شعورهن بطرق معقدة فيجعدن شعورهن ويزينه بالحلي المصنوع من الذهب، ويقمن بتسوية شعورهن على الرأس لتنسدل خصلاته على الجانبين بشكل ملتوي، ثم شاع في القرنين الخامس والسادس بين

نساء الطبقة الراقية غطاء للرأس مبطن من اللباد يمسك بواسطة شرائط من اللؤلؤ الصغير، وعندما أصبح الذهب نادر شاع استخدام الفضة لذات الغرض.[46]

الاحتفالات والمهرجانات

وكانت هناك العديد من المناسبات والمهرجانات التي يحتفل بها البيزنطيون ويتمتعون بالمشاركة فيها بقدر من الملذات الموسمية منها الأعياد الكنسية التي يتم الاحتفال بها بكل أبهة ووقار ويكرم فيها القديسين المحليين الذين يتم إحياء ذكراهم في الأديرة المجاورة كما كانت هناك مناسبات عائلية كحفل الزفاف بالإضافة إلى إقامة أسواق سنوية يحضرون إليها في العواصم الإقليمية، وأسواق أخرى وان كانت أصغر حجما الا إنها تتمتع بنفس الحيوية وهي تقام في المدن المحلية، ومن مظاهر احتفالات الناس إيقاد الشموع، والصخب وتناول الطعام والشراب، وممارسة الألعاب البهلوانية ، والشعوذة، والتمثيل.[47] بالإضافة إلى استدعاء خطيب له بلاغة وخاصة أبان الاحتفال بعيد الإمبراطور أو المناسبات المشابهة لها ويدعى بخطيب التاج، مع ملاحظة أنه يجب على متقلد منصب أمين الغرفة، باعتباره رئيس التشريفات أن يعمل على تنظيف الطريق الذي سيمر معه موكب الإمبراطور وتغطية الشوارع بنشارة الخشب، وإلزام أصحاب المنازل المجاورة بتزيين واجهة منازلهم بالزخارف من اللبلاب -وهو نبات يحتفظ بلونه الأخضر طوال العام- والغار والآس وإكليل الجبل، وأن يشارك هو بنفسه في الموكب حاملا العصا الذهبية المرصعة بالجواهر التي كانت شارة منصبه، وبرفقته حراس مسلحون بالسيوف، والفؤوس، ويحملون أغصان الزيتون، هذا النوع من الاحتفالات يقام عادة بمناسبة المعمودية والتتويج، وعند الدفن والانتصارات العسكرية، واحتفالات استقبال السفراء والمهرجانات الدينية.[48]

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم دمج العديد من العادات الوثنية في الطقوس المسيحية أثناء الاحتفالات، فقد كان من المعتاد إقامة عطلة رسمية تكريما لإله الشمس في 25 ديسمبر وفي سياق الاحتفال أدى الإمبراطور مشهد من التمثيل الإيمائي انتحل فيه شخصية إله الشمس، حيث ظهر مرتديا الهالة -وهي طوق من الضوء يعصب بها الرأس - وفي الأصل تمثل شعار إله الشمس، مع العلم أنه إلى نهاية القرن العاشر كان الاحتفال بميلاد المسيح يوافق 6 يناير، ومن الأمثلة على العادات الوثنية ايضا الاحتفال بيوم حصاد العنب الذي كان يأتي في 15 أغسطس والذي كان يشارك فيه الإمبراطور وبطريرك العاصمة حيث أنهم يتجهوا على رأس موكبهم إلى إحدى مزارع الكروم القريبة للمشاركة في ذلك المهرجان بعد أن تزين أرجل وذيل حصان الإمبراطور بأشرطة حريرية مزخرفة ومرصعة بالجواهر، وكان يحتفل الفلاحون بهذه المناسبة ويستمتعون بها ويشربون الكثير من الخمر، ويلعبون فيها ويلهون طوال اليوم ويمثلون فيها، ومن ذلك أنهم أي العمال يأتون بعربة يفرغون منها الذرة وآخرين يحررون الثيران تحت أعين السيد و الصياد يأخذ أرنبا من كلبه استعاده للتو وغيرها.[49]

نتائج الدراسة

بينت لنا الدراسة صورة من صور الحياة الاجتماعية التي عاشها المجتمع البيزنطي، وكيف أصبحت لأفراده سمة خاصة يعرفون بها.

أثبتت الدراسة أن الحياة السياسية والاقتصادية للدولة أثر بشكل مباشر على معظم العادات والتقاليد التي كانت معروفة عند البيزنطيين.

دللت دراسة العادات والأعراف وعلى وجهة الخصوص تلك التي صاحبت إقامة المهرجانات والاحتفالات وتقديم الطعام والولائم، على المستوى الثقافي الذي كان عليه أفراد المجتمع البيزنطي.

أوضحت الدراسة أن الحاجة من جهة والثراء من جهة أخرى، إضافة إلى الاختلاط بالمجتمعات المجاورة أدت إلى تطور العادات والتقاليد في المجتمع البيزنطي، أي بمعنى آخر أن العادات والتقاليد تنبع من البيئة المحيطة بها.

من خلال الدراسة تبين أن كثير من الأعراف والعادات التي كانت معروفة سابقا استمرت حتى وقتنا الحاضر وإن اتخذت أشكالا مختلفة، إذ إنها ارتبطت بحياة الإنسان على مر العصور.

الهوامش والمراجع

[1] ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة. 1997م) ص 222.

[2] Tamara Talbot Rice: Everyday life in Byzantium, Jarrold(London, 1967)p.142-143.

[3] الجص: أو الجبص أو الجبس هو مادة صلبة مكونة من ثنائي هيدرات كبريتات الكالسيوم، وهو من الخامات المتوفرة بكثرة في الأرض وهو صخر رسوبي يتواجد مع الطين والحجر الجيري ذو لون رمادي أو أبيض ويميل إلى الاحمرار في بعض الأحيان = مصطفى الشهابي: معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعة(بالعربية والانجليزية واللاتينية) تحرير أحمد شفيق الخطيب، ط5، مكتبة لبنان(بيروت.2003م)ص835.

[4] Codex Justinian: 8:9:11. See also Nevra Necippoglu: Byzantine Constantinople: Monuments, Topogaphy and Everyday life,Koln, 2001,p.45.

[5] Catherine Saliou: The Byzantine house(400-912) rules and representations, wien, 2007,p.204-205.

[6] Tamara Talbot Rice: Op Cit, p. 144.

[7] Codex Justinian: 10:1.

[8] ستيفن رنسيمان: مرجع سابق، ص222.

[9] هو نبات له اغصان كثيرة لا ورق لها ولا شوك أطرافها محددة بمعنى آخر عيدان تنبت طوالا دقاقا مستوية لا ورق لها = ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث(القاهرة. 2006م) 151/1.

[10] Tamara Talbot Rice: Op Cit, pp. 144,186.

[11] Ibid, p.174.

12 Antti Arjava: Women& Law in late antiquity, Oxford university press, 1995, p.29.

13 W. W. Buck land, A Text- boo; of Roman law from Augusus to Justinian, Combridge University press, 1921, p. 103.

[14] عبد العزيز رمضان: المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، مصر العربية للنشر والتوزيع(القاهرة، 2005)ص34، 37.

[15] Antti Arjava: Op Cit. pp. 29-30.

[16] Ibid: pp.30,32,34.

[17] ODB,V2,P.1142.

[18] أنا كومنين: ألكسياد، ترجمة حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة ، 2004) ص132.

انظر ايضا: وسام عبد العزيز فرج: بيزنطة قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية(القاهرة،2003) حاشية ص 157.

[19] جورجو رافينياني: الحياة اليومية في نهاية العالم القديم، ترجمة عدنان علي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، (ابو ظبي، 2017) ص 14، 16، 26.

انظر ايضا: عبد العزيز رمضان: مرجع سابق، ص 146، عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية(القاهرة، 1982) ص 221.

John Meyendorff: " Christian Marriage in Byzantium: The Canonical and Liturgical Tradition" DOP 44, 1990,P.104.

[20] Constantine Porphyrogennetos: The Book of Ceremonies, trns. Ann Moffatt and Maxeme Tall, Canberra, 2012, v,1, p380.

21 المرجع نفسه، ص14.

[22] أنا كومنينا: مرجع سابق، ص 251.

[23] Nicetas Choniates,: O city of Byzantium annals of Nicetas Choniates, trans. Harry J. Magoulias, Wayne state university press Detroit, 1984,p.6-7.

[24] المرجع نفسه، ص 8-9، 252.

[25] جورجو رافينياني: مرجع سابق، ص 33.

[26] Angeliki E. Laiou, Thomadakis: Peasant society in the late Byzantine Empire, New Jersey, 1977, pp.78, 108-109,111.

أنظر ايضا:

عفاف سيد صبة، مرجع سابق، ص 226.

[27] Angeliki E. Laiou, Thomadakis: Op Cit. p.107.

[28] Tamara Talbot Rice: Op Cit, pp. 192-93, 204.

[29] جورجو رافينياني: المرجع السابق، ص 66.

[30] المرجع نفسه، ص33.

[31] عبد العزيز رمضان/ مرجع سابق، ص 81-82.

[32] هسي: العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية(القاهرة،1997) ص 269.

[33] ستيفن رنسيمان: مرجع سابق، ص222.

[34] Constantine Porphyrogennetos: Op Cit, pp. 275-276.

[35] Tamara Talbot Rice: Op Cit, pp.168-170.

[36] Tamara Talbot Rice: Op Cit, pp.168-170,174,186; see also: Andrew Dalby: Tastes of Byzantium the cuisine of a legendary empire, published L. B. Tauris, London, 2010, pp.63,67,70-76.

[37] Ibid, p.72.

[38] Ibid, p.62.

[39] ياسر مصطفى عبد الوهاب: ليودبراند أوف كريمونا وتأريخه لأحوال أوروبا في القرن العاشر، ورد ضمن مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، ص 26.

[40] Tamara Talbot Rice: Op Cit, p. 186.

[41] شعبان حمزة: الملابس والزينة في المجتمع البيزنطي في العصور الوسطى دراسة تاريخية وحضارية، الدار الثقافية للنشر (القاهرة، 2016) ص 7.
[42] عفاف سيد صبرة: مرجع سابق، ص 235.
[43] آنا كومنين: مرجع سابق، ص 142.
[44] شعبان حمزة: مرجع سابق، ص 7.
[45] عفاف سيد صبرة: المرجع السابق، ص 236.
[46] المرجع نفسه، ص 235، 237-238، 240-241.
[47] جورجو رافينياني: المرجع السابق، ص 33، أنظر ايضا:
Tamara Talbot Rice: Op Cit, pp.89,188.
[48] Ibid.p.198.
[49] ا Ibid.p.50.